

قراءة لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

د. أحمد ربيع
المركز الجامعي - تماراست

المقدمة:

يمثل مالك بن نبي (1905-1971) مدرسة فكرية متفردة لها ضوابطها ومميزاتها، عالجت الكثير من القضايا المجتمعية، جعلت الباحثين في ميادين علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا وكذا السياسة و الاقتصاد يولونها عناية خاصة واهتماما كبيرا، حتى غدت أفكار ابن نبي محل شرح ونقد وتحليل وذلك لما تحمله من مضامين حضارية كما ورد في كتابه «شروط النهضة» حيث يقول: «أن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلى مستوى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها»¹ ندرك من خلال هذه النظرة أن الحضارات لا تنطلق من البدايات الصفريّة، ولا من محض الصدفة و الهوى، بل لابد لها من منهجية علمية تتبّع مختلف أبعادها، وتحلّل مختلف عوامل بنائها لذلك وجدت نفسي بعد قراءتي لبعض مؤلفات مالك بن نبي مثل: شروط النهضة- تأملات- ميلاد مجتمع - آفاق حضارية - أن أقوم بقراءة موضوعية لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي خصوصا في بعدها "الترتيبي".

البعد الترتيبي للحضارة عند مالك بن نبي

لما كانت الحضارة في منظور مالك بن نبي حركة بناء، فإن في ذلك لا محالة إقرارا صريحا بأنها ليست عملا تكديسيا، لأن مشكلة الحضارة لا تحل في نهاية الأمر باستيراد منتوجات متوفرة لدى مجتمعات أخرى- مع الاحتفاظ بالطبع هنا لصواب فكرة الاستفادة الواعية من المجتمعات الأخرى - والتي تعد ضرورية لاستقامة التفاعل بين المجتمعات، ولكنها تتطلب حل ثلاث مشكلات جزئية على النحو التالي:

01- مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامة مع سير التاريخ

02- مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية

03- مشكلة الوقت وبحث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد

فلكي تبني حضارة ما يجب كما يقول مالك بن نبي: "أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب، والوقت، والمواهب في بناء هدفهم"². فمنتوج حضاري كالمصباح مثلا: يتركب في نظره من عمل الإنسان الذي يوجد خلف العملية العلمية، والصناعة التي يعد المصباح ثمرتها والتراب (بمفهومه

الواسع) في عناصره من موصول وعازل، والوقت الذي يبرز في جميع العمليات التكنولوجية والذي يساهم بمعية العنصرين الأولين (الإنسان، والتراب) في إنتاج المصباح³.

وهكذا يمكن القول بأن المصباح هو منتج حضاري=الإنسان + التراب + الوقت

كما يمكن إسقاط هذا المثل على الكثير من المنتجات الحضارية التي لا تخلو من تفاعل العناصر الثلاث، ولهذا حينما نحاول حسب رأي مالك بن نبي التخطيط لحضارة "ما" فلا ينبغي علينا أن نفكر في منتجاتها؛ وإنما في الأشياء الثلاثة والتي هي: الإنسان، والتراب، والوقت.

01- الإنسان:

إن المتأمل لعنصر الإنسان في ضوء النظرة الشمولية المتكاملة لمؤلفات مالك بن نبي، يقف عند فكرة أساسية تتمثل في أن الإنسان هو في نظره منبع وأساس المشكلة الحضارية كلها، وأي تفكير في مشكلته؛ هو تفكير في مشكلة الحضارة، غير أن مشكلة الإنسان بالمفهوم العام تختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها وما فيها من معطيات.

وفي هذا الصدد فهو يرى بأن الإنسان في الوقت الحالي يؤثر في المجتمع بثلاثة مؤثرات:

بفكره، بعمله، بماله.

ومن الممكن تقريب الصيغة والقول بأن الإنسان في المجتمع الذي يعاني أزمة حركة ونمو على مستوى مختلف المجالات (الاجتماعية- الاقتصادية- السياسية) فإنه منوط بتوجيهه في نواح ثلاث:

أ- توجيه الثقافة

ب- توجيه العمل

ج- توجيه رأس المال

تنبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أن المقصود بالتوجيه عند مالك بن نبي هو أن

يمثل: «قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف»⁴، ومن المهم في

هذا السياق حسب رأي مالك بن نبي التأكيد على ملاحظة منهجية أساسية هي: أن التوجيه في مجال الضواء، أي المسائل الإنسانية يتطلب من ناحية ابستمولوجية تعريفها أولاً، والثقافة من بين هذه الظواهر الإنسانية الأساسية التي تتطلب بإلحاح تعريفاً بل تعريفين: الأول: يحددها في إطاراً لحالة الراهنة، والثاني: يحددها وفق النظرة المستقبلية فالجيل الذي نمثله اليوم على سبيل المثال في نظر- مالك بن نبي- يمثل حداً فاصلاً بين عهدين: عهد التراجع الحضاري، وعهد بداية الانطلاق الحضاري، فهو بشروعه في بناء نهضته يكون قد سجل نقطة بداية لنهاية موت الضمير، وفي الوقت

نفسه نقطة انطلاق نحو بقضة الضمير، وبعبارة أخرى يكون قد سجل اللحظة الفارقة بين عهد الفوضى والجمود، وعهد التنظيم والترتيب والتوجيه، وحينما يصل التاريخ الإنساني إلى مثل هذا المنعطف من دورة الحضارة؛ فإنه يكون قد أقدم على مرحلة تمثل نهاية عهد وبداية عهد آخر، أي مرحلة وسط بين الماضي الميت، والمستقبل الذي ينبغي أن يكون حيا وهكذا فإنه عندما نكون بصدد الحديث عن النهضة نحتاج من ناحية منهجية حسب رأي - مالك بن نبي - إلى أن نتصورها من ناحيتين: الناحية الأولى: وهي تلك المتصلة بالماضي بحصيلة التدهور المجسم في عالم الأشخاص والأفكار والأشياء.

الناحية الثانية: وهي تلك المتصلة بجزور المصير وجزور المستقبل، وهذا التمييز ضروري جدا يمكن تحقيقه بالشروع أولا؛ بتصفيه العادات والتقاليد والنظام الاجتماعي والأخلاقي بما في كل ذلك من عوامل ميتة أو مميته ورواسب لا فائدة منها؛ حتى يفسح بذلك المجال للعوامل الأخرى الفعالة لتنشيط حياة المجتمع وتحريكه باتجاه الحضارة نحو صناعة التاريخ، على أنه ما ينبغي الإشارة إليه في

هذا الصدد هو أن هذه التصفيه لا تأتي إلا بفكر جديد قادر على تغيير الوضع الموروث عن فترة تدهور عاشها مجتمع أصبح اليوم يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة، والمراد بالفكر الجديد هنا هو تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي يراها مالك بن نبي ضرورة تماما للثقافة⁵ وهي:

- برنامج التوجيه في مجال الثقافة الأخلاقية
- الذوق الجمالي
- المنطق العملي
- التوجيه الفني

هذا وتجدر الإشارة أيضا إلى أن التحديد المزدوج للثقافة- في إطار الحالة الراهنة وحسب المصير (المستقبل)- لا يعتبر ذا أهمية أو أثربالغ إلا إذا زال ذلك الخلط الشائع بين مصطلح (الثقافة) ومصطلح (العلم).

فالثقافة في مفهومه نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن أن يقاس الفرق الضروري بين الثقافة و العلم، ومن ثمة فالثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الفرد في المدارس ويطالعه في الكتب أي بمعنى أنها ذات مضمون معرفي صرف بحيث تصبح تساوي النتاج التعليمي أو التخصص في ميدان من ميادين المعرفة وإنما هي جو عام من الأذواق والعادات والقيم التي تؤثر في تكوين الشخصية وتحديد دوافع الفرد وانفعالاته

وعلاقاته بالأفراد الآخرين وبالأشياء.

ومما سبق يمكن تعريف الثقافة بصورة عملية-حسب رأي - مالك بن نبي- على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أولى في الوسط الذي ولد فيه ، فهي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباع شخصيته، وهي بتعريف أشمل تمثل المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر.

والجدير بالاستنتاج من هذا التعريف العام هو أنه يتضمن جانبين من الفلسفة: فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، أي مقومات الإنسان، ومقاومات الجماعة في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشحنة الروحية عندما يؤذن ظهور وبروز إحدى الحضارات⁶. وبهذا المفهوم يتبدى جليا الموقع المحوري للمسألة الثقافية في حركة البناء الحضاري، غير أنه وبتتبع وجهة نظر - مالك بن نبي- في الثقافة نجده يركز في المقابل على أنه «لا سبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلا بعد تخليصها من الحشو أو الانحراف الذي يحدثه عدم فهمها عل الوجه الصحيح»⁷.

والمقصود بالحشوها هو عدم تصفية عادات وحياة الأفراد بصفة عامة مما يشوبها من عوامل الانحطاط، مثلما هو الشأن بالنسبة (للجزائر) إبان الاحتلال الفرنسي حيث لم تنتج عموما ثقافة النهضة بها في البداية سوى متقفين حرفيين (أنصاف متقفين) عبر عنهم - مالك بن نبي- بصيغة (رجل القلة، أو رجل النصف) متبئين في صفوف مجتمع أغلب أفرادهم أميين، فرجل القلة هذا لم يكن ينظر إلى مشكلة النهضة إلا ضمن حدود تحقيق حاجات وطموحات شخصية جعلت من مفهوم الثقافة عنده هو أنها عبارة عن طريقة فقط ليصبح شخصية بارزة في البرلمان الفرنسي مثلا، وإن زاد فعلم يجلب رزقا.

وظاهرة التعالم أو الحرفية في التعليم كمرض اجتماعي يصيب المجتمع، لا تقل خطورة عن ظاهرة الجهل المطلق بل إنها لتزيد عنها خطورة، لأن الجهل يمكن علاجه نسبيا بسهولة، أما التعالم فعلاجه أصعب بكثير.

ولتقريب الصورة أكثر يسوق مالك بن نبي المثال التالي فيقول: «إن كلام هذا المتعلم ليس كتهمة الصبي، فيها صبيانية وبراءة. فهو ليس متدرجا في طريق التعلم كالصبي، وإنما تهمته تتمثل فيها شيخوخة، وداء عضال، فهو الصبي المزمن الذي ينبغي أن يزاح من طريق الحضارة

ليفسح بذلك المجال للطالب العاقل الجاد كيفما كان وضعه الاجتماعي، لأن الثقافة لا تخص طبقة دون أخرى وإنما تخص المجتمع كله⁸.

وهذا الفهم يصنع تدريجيا التاريخ الذي لا يمكن أن نتصوره حسب رأي مالك بن نبي بثقافة لأن المجتمع الذي فقد ثقافته، يكون قد فقد حتما تاريخه. فالثقافة في النهاية هي الوسط الذي تتكون فيه خصائص المجتمع المتحضر، المجتمع التاريخي، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع منذ البداية لنفسه، بما في ذلك الحداد، الفنان،

الراعي، العالم، والإمام، وهكذا يتركب التاريخ وتغدو الثقافة من هذه الزاوية عاملا حضاريا تاريخيا، بل وأيضا نظاما تربويا تطبيقيا ينشربين جميع طبقات المجتمع.

ويتألف هذا النظام أو البرنامج التربوي الذي يتخذه المجتمع دستورا

لحياته الثقافية من عناصر أربعة يراها مالك بن نبي مهمة جدا لجمع شروط الفعالية التي هي النقطة الأساسية التي من خلالها يمكن الوقوف على مكتبة الثقافة في المجتمع، ونجاح أية سياسة اجتماعية. وهذه العناصر هي كالتالي:

- التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية، وتحديد السلوك الجماعي داخل المجتمع
- والتوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام
- والمنطق العملي
- والتوجيه الفني المتلائم مع حاجات ومتطلبات كل مجتمع⁹.

التوجيه الأخلاقي:

ينبغي التأكيد في بداية تحليل هذا العنصر على ملاحظة معرفية ومنهجية تتمثل في أن الاهتمام بعنصر الأخلاق، لا تتم مقارنته هنا من زاوية فلسفية، وإنما من زاوية اجتماعية، تحدد على وجه الدقة في قوة التماسك للأفراد في مجتمع يطمح إلى تكوين وحدة اجتماعية تاريخية حضارية.

ومن المعلوم في هذا الصدد أن قوة التماسك هذه مرتبطة في أصلها بغريزة - طالما تحدث عنها مفكرون عديدون (أرسطو، مونتيسكيو، ابن خلدون) واستخدمتها القبائل الموهلة في البداوة هي: غريزة الحياة في جماعة عند الفرد والتي تدفعه لتشكيل القبيلة، العشيرة، المدينة، والأمة¹⁰.

غير أنه من المهم الإشارة في هذا السياق إلى أن المجتمع الذي يجتمع أفراده لتكوين حضارة ما بدوره يستخدم الغريزة نفسها، ولكنه يزيد عليها
بتهديتها وتوظيفها بروح خلقية سامية، ومصدر هذه الروح الخلقية حسب رأي - مالك بن نبي - هي الدين، ووظيفتها الاجتماعية، هي ربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض كما تشير إلى ذلك الآية القرآنية الكريمة التالية:

”...وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ“¹¹

إن ما يشد الانتباه في هذا السياق حسب رأي مالك بن نبي دائما هو ذلك الاتفاق في المفزى والدلالة بين ما تذهب إليه هذه الآية الكريمة، وبين معنى كلمة دين في أصلها اللاتيني وهو الربط والجمع.

التوجيه الجمالي:

يعتبر المبدأ الجمالي أساسا ثانيا هاما تقوم عليه الثقافة، فهو الذي يضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية، والذوق العام من حيث الألوان والأشكال.
يظهر هذا حتى في أبسط معاني الجمال في شكل اللباس الذي يرتديه الإنسان، وفي الحقيبة التي يحمل فيها ملابسه عند السفر، وفي المسحة التي تكون عليها الشوارع، والبيوت، والمقاهي.
إن كل هذا ينم عن المبدأ الجمالي الذي يشكل أساسا هاما في ثقافة المجتمع، فإذا كان المبدأ الأخلاقي حسب رأي مالك بن نبي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والاتجاهات، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته، وهنا وجه آخر للفرق بين العلم والثقافة إذ الأول تنتهي عملياته عند إنشاء الأشياء وفهمها، بينما الثانية تستمر في تجميل الأشياء وتحسينها.
غير أن ما تنبغي الإشارة إليه في هذا السياق، وإلى جانب كل ما تقدم هو أن النموذج الذي يكون عليه المجتمع، أي مجتمع يتأثر إلى حد كبير بنتيجة العلاقة القائمة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي والتي تأتي أولا نتيجة العلاقة في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في سلم القيم الثقافية في المجتمع.
ويمكن القول في هذا الصدد بأنه هناك بصورة عامة نموذجين من المجتمعات: الأول يقوم فيه النشاط أساسا على المنازع والدوافع الجمالية، والثاني يقوم فيها النشاط أساسا على المنازع والدوافع الأخلاقية.

إن هذا الاختلاف في ترتيب عناصر الثقافة ليس مجرد اختلاف شكلي لأن هذين النموذجين من المجتمعات لا يتطوران في الأصل في اتجاه واحد.

فالمجتمع الغربي على سبيل المثال كان قد مارس من بين فنونه فن التصوير، وتصوير المرأة العارية بصفة خاصة بسبب الدافع الجمالي، بينما الفن الإسلامي الأصيل لم يخلف آثاراً في التصوير تصب في هذا الاتجاه.

أولاً أخرى في هذا النوع من الصور، لأن الرادع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يسمح للفنان بأن يعبر عن كل أنواع الجمال وعلى الخصوص إذا تعلق الأمر بإنجاز صور تجسد المرأة وهي عارية.

والشيء نفسه أيضاً بالنسبة لتطور الملابس في المجتمع الغربي والذي انطلق من فكرة أساسية وهي محاولة إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهره ومظهر الجمال، بينما لم يتخذ تطور الملابس في المجتمع الإسلامي هذا المنحى أو هذا الاتجاه بل اتخذ اتجاهها مخالفاً تماماً له إذ هدف أساساً من خلال وسائل معينة كملاية اللف في الجرائد وغيرها من الوسائل المتنوعة في ظاهرها والمتوحدة في بعدها الأخلاقي الإسلامي عبر مختلف دول العالم الإسلامي أن يخفي جمال المرأة في الشارع²¹.

إن هذا لا يعني أن الثقافة الإسلامية تفتقد لعنصر الجمال أولاً تثمنه وإنما تضعه في مكان آخر من سلم القيم.

هذا ويمكن الوقوف أيضاً على نتيجة هذه العلاقة القائمة بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي والتي تأتي أولاً في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال من خلال دراسة الاستعمار كظاهرة ثقافية تدل على أن الثقافة الغربية حددت علاقة مبدأ أخلاقي-ذوق جمالي بصفة معينة وذلك بأن قدمت العنصر الثاني على الأول في ترتيب القيم فأثر هذا الترتيب في علاقة الإنسان الأوربي بالإنسانية.

فكل ثقافة سيطرة هي في أساسها ثقافة تنمو فيها القيم الجمالية على حساب القيم الأخلاقية.

ويمكن تتبع وملاحظة الأثر الكبير الذي يتركه مفعول علاقة مبدأ أخلاقي-ذوق جمالي في مجالات أخرى مثل ما يتعلق باتجاه الأدب بصفة عامة، بحيث تحدد هذه العلاقة في هذا المجال بتزعة يطلق عليها في المجتمعات التي تعطي الأولوية لذوق الجمال بالفن للفن، كما تحدد من ناحية أخرى بتزعة يطلق عليها في المجتمعات التي تقدم الأخلاق بصورة ما على

الجمال بالأدب الملتزم³¹.

إن هذا الترتيب الخاص الذي يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي ينتهي أيضا في نظر مالك بن نبي إلى تحديد مناهج سياسية مختلفة تمام الاختلاف، فبينما ينزع منهج إلى تأسيس ديمقراطية تجعل حرية الفرد هدفها، وذلك بدافع جمالي إذا بالأخرى تنهج إلى ديمقراطية تستهدف سعادة المجتمع وذلك بدافع أخلاقي.

وهكذا فإنه حينما يتعلق الأمر بمعالجة مشكلة توجيه الثقافة في المجتمع ينبغي الأخذ بعين الاعتبار مثل هذه المسائل لأن أي خلل يحدث في هذه العلاقة: مبدأ أخلاقي، ذوق جمالي يؤدي في النهاية إلى حدوث خلل في توازن الحضارة.

المنطق العملي:

يشكل هذا المبدأ أساسا ثالثا هاما تقوم عليه ثقافة المجتمع، فهو مبدأ يخص المحصول الاجتماعي كما يخص الفعالية الفردية و الجماعية، وهذا فهو هنا المنطق العملي، لا يعني ذلك المنطق الذي دونت أصوله ووضعت قواعده مع ظهور المفكر اليوناني "أرسطو" وإنما هو ذلك المنطق الذي يعنى بشكل كبير بالتجسيد والتطبيق وبكيفية ارتباط العمل بوسائله وغاياته ومنه بمحاولة استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة واقعا.

وهذا تتحقق وتتجسد الفعالية في كل أنواع النشاط الإنساني الذي يقوم دائما على أساس الحركة وما التاريخ الإنساني نفسه في نظر مالك بن نبي إلا قائمة إحصائية لعدد معين من الحركات والأفكار ولذلك فإنه من البديهي أن المجتمع الذي يسجل يوميا أكبر عدد ممكن من الحركات والأفكار، يكون لنفسه محصولا اجتماعيا أكبر، بمعنى فعالية أكبر، فمثلا "الفرد الذي يسير عشر خطوات ويحرك يده عشر مرات بطريقة منظمة وهادفة يقدم للمجتمع من الثمرات أو الإنجازات أكثر مما يقدمه فرد يسير خطوة واحدة ويحرك يده مرة واحدة"⁴¹.

وهكذا فإنه بإضافة هذا المبدأ الثالث -المنطق العملي- إلى مفهوم الثقافة يكون قد تم تموين شرط هام آخر من شروط الفعالية في سلوك الفرد، وأسلوب الحياة في المجتمع، ولا شك في أن هذا المبدأ سيزيد حسب رأي مالك بن نبي في توضيح الفرق الجوهرى بين الثقافة والعلم، ومن ثمة بين الفرد المثقف والفرد العالم أو المتعلم وما تنبغى الإشارة إليه في هذا الصدد أيضا هو أن مالك بن نبي يعتبر أن الفرد المسلم اليوم لا ينقصه في الأصل منطق الفكرة، وإنما ينقصه منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا خالياً من ذلك

الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة وتحققها⁵¹.

إن هذا الكلام ينسحب على المجتمع الإسلامي عموماً، بحيث لا يصح القول عن هذا الأخير أنه يعيش طبقاً لمبادئ القرآن، وإنما هو يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن، ذلك لأن المنطق العملي في سلوكه الإسلامي غير موجود، وهو ما يفسر إلى جانب عوامل أخرى لفعاليته.

التوجيه الفني:

يشكل هذا المبدأ أساساً رابعاً هاماً تقوم عليه الثقافة في المجتمع، وهو يتصل بمختلف النشاطات التي يمارسها الأفراد: الفنون، الحرف، العلوم، الصناعة بتعبير ابن خلدون.

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد هو أن التوجيه الفني يمثل بالنسبة للفرد لوحده وسيلة لكسب عيشه وربما لبناء مجده، بينما يمثل بالنسبة للمجتمع وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه.

وفي هذا الإطار يرى مالك بن نبي أنه يتوجب في كل توجيه فني لعمل الفرد أن تؤخذ بعين الاعتبار العلاقة الترابطية المزدوجة بين المصلحة الخاصة الفردية والمصلحة العامة، لأن في ذلك تحقيق للفعالية التي يحتاج

إليها المجتمع الذي يهدف إلى بناء حضارة متوازنة، ولها أساس ثقافي قوي، وعلى المجتمعات التي تعاني من مشكلة التوجيه هذه - مثل المجتمع الجزائري - أن تنشئ مجالس حقيقية للتوجيه الفني لتحل هذه المشكلة نظرياً وعملياً تبعاً لحاجات ومتطلبات كل مجتمع.

وهكذا إذن فالثقافة التي يتم تحديدها وتصورها في صيغة بيداغوجية، هي كل هذه العناصر الأربعة: المبدأ الأخلاقي، المبدأ الجمالي، المنطق العملي، التوجيه الفني والتي تشكل فيما بينها تركيباً متآلفاً يسمح بجمع شروط الفعالية - التي هي كما تم توضيحه - الشيء الذي يريده مالك بن نبي من وراء كلمة ثقافة⁶¹.

لقد تمت الإشارة سابقاً إلى أن ملك بن نبي اعتبر أن الفرد يؤثر في المجتمع بثلاثة مؤثرات: بفكره، بعمله، بماله

كما تم القول بأنه من الممكن قلب الصيغة والقول إن قضية الفرد في المجتمع بالنسبة إليه منوط بتوجيهه في نواح ثلاث هي:

- توجيه الثقافة

- توجيه العمل
- توجيه رأس المال

وقد انتهينا فيما سبق من دراسة عنصر توجيه الثقافة من منظور مالك بن نبي و فيما يلي نتعرض إلى دراسة عنصر توجيه العمل، ومن المنظور نفسه أيضا أي باعتباره عنصرا أساسيا آخر من العناصر الثلاثة السالفة الذكر والتي بتكاملها يتحقق حل مشكلة الإنسان. ولقد يبدو غربيا للبعض حسب رأي مالك بن نبي أن يتم الحديث عن شيء يسمى توجيه العمل يكاد يكون غير موجود في واقع مجتمع، كالمجتمع الإسلامي حاليا، ذلك لأن الوجه المألوف لكل ما هو متعطل وغير موجود في واقع المجتمع أصبح يشكل نقطة استفهام مقلقة بالنسبة لهم.

ولكن ألم يتم الحديث عن توجيه الثقافة، فهل هناك ثقافة حقيقية في الجزائر مثلا، بل وفي العديد من بلدان العالم الإسلامي، حتى يتم الحديث عن توجيهها، ومع ذلك فمن المهم حسب رأي مالك بن نبي، الحديث عن شيء لا وجود له لأن في ذلك محاولة لخلقه وإسهام في تكوينه.

ونقطة الاستفهام هذه لا تسد الطريق إلا على أولئك الذين ينظرون إلى الأشياء في وضعها لا في مصيرها.

هذا ويشير ملك بن نبي -أيضا- فضلا عن كل ذلك بأن العمل وحده هو المصدر الذي يخط من خلاله مصير الأشياء، لأنه لا يتولد أساسا من الخطب، وإنما من حركة العناصر الأساسية الدائمة: الإنسان، التراب، والوقت⁷¹.

يظهر ذلك جليا على سبيل المثال في محاولة المسلمين الأوائل اللجوء في البداية بصورة فعلية إلى مباشرة إنجاز أول مسجد لهم بالمدينة، شكل أول ساحة للعمل على الرغم من بساطتها التي تبدو للبعض كأنها منطلقا للحضارة الإسلامية.

إنهم بهذه الطريقة استطاعوا أن يتحكموا في مجرى التاريخ، ويستنتج من ذلك أنه في المجتمع الذي هو حالة نشوء يتعين النظر إلى العمل من الجانب التربوي، وليس من جانب الربح أو الكسب.

وبصفة عامة فإن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد الراعي، صاحب الحرفة، التاجر، الطالب، العالم، المرأة، المثقف والفلاح لكي يصنع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء، ويجب أن يكون التوجيه

المنهج للعمل شرطا عاما أولا ثم وسيلة خاصة لكسب العيش بعد ذلك. بمعنى أنه على المجتمع الذي يسعى إلى بناء حضارة أن يهتم في المقام الأول بعملية التوجيه العملي عن طريق توعية أفراده، بأن العمل شرط أساس وعملية ضرورية للوجود، ولتحقيق التقدم، ثم بعد ذلك يهتم بالتوجيه في العمل من أجل الكسب.

توجيه رأس المال.

يشير مالك بن نبي في هذا الصدد إلى ضرورة التمييز بين مفهوم: الثروة ورأس المال فالثروة يمكن فهمها انطلاقا من المركز الاجتماعي لصاحبها أو حتى من خلال استعمال صاحبها لها بنفسه في إطار ضيق يسمح له بتلبية حاجاته فقط ، وبهذا فهي تظهر - في كلتا الحالتين - معرفة بطابع مكاسب الفرد غير المتحركة وغير الداخلة في الدورة الاقتصادية .

أما رأس المال فهو في جوهره المال المتحرك والمجرد - كما هو معروف عند الاقتصاديين - الذي ينفصل عن عكس الثروة - اسما عن صاحبه، ويتسع مجاله الاجتماعي بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد، وأقصى من المقدار الذي تحدده حاجاته الخاصة.

يمكن ملاحظة ذلك ، بصفة عامة ، حتى في المجتمع الغربي أوروبا ، حيث أن تكوين رأس المال به بدأ مع ظهور الصناعة، وذلك انطلاقا أولا من المواد الأولية المحلية والمستوردة ثم المصانع كفضاءات تتحول فيها تلك المواد إلى سلع ومنتجات، ثم الأسواق -كمجالات للاستهلاك - تصرف وتباع فيها تلك السلع.

كل ذلك قد جعل المال يتسع أكثر من حيث توظيفه ، ليتجاوز هكذا نطاق استعمال الفرد الخاص ومحيطه ، إلى نطاق أوسع يتمثل في محيط ينتقل فيه هذا المال من بلد إلى آخر مشكلا بذلك لشبكة من العلاقات الاقتصادية بين مختلف البلدان، ومتخذاً شكل قوة مالية مجردة يطلق عليها رأس المال.

و الواضح هنا أن انتقال المال من بلد إلى آخر ينتج عنه خلق ل (العمل) بما يتطلب هذا الأخير من تعبئة للأيدي والعقول .

على أن تجدر الإشارة أيضا في هذا الصدد إلى أن توجيه رأس المال وهو لا يزال في طور التكوين: (مثل الجزائر أو في غيرها من بلدان العالم الإسلامي، بل وفي كل بلد يعيش أزمة حركة ونمو بصفة عامة).⁸¹ يكتسي أهمية اجتماعية كبرى بالنسبة للإنسان . ذلك لأنه لا يصبح هنا الاتصال بالكم

وإنما بالكيف، لأن الانشغال الأساس في هذا الطور أي هذه المرحلة يكون منصبا بالدرجة

الأولى على كل قطعة مالية متحركة، بعدها يصل المجتمع إلى مرحلة معينة من التطور الحضاري. وعليه فان توجيه الإنسان لرأس المال من أجل بناء حضارة ما، لا يتطلب دائما، و بالضرورة - حسب رأي مالك بن نبي - كمية كبيرة من الأموال، وإنما يتطلب قبل كل شيء كيفية تسيير ناجحة وعقلانية لما هو موجود بحوزة المجتمع من أموال، مهما كانت كميتها قليلة، وهذا بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك يخلق معه العمل والنشاط، و يتوافر فيه - بخلاف ما وقع في أوروبا من اضطرابات اجتماعية ناتجة عن تهيمش طبقة لأخرى - إسهام جميع أفراد المجتمع.

1 وهكذا فانه بهذا التوجيه الذي يسير بصورة مترابطة و متناسقة مع توجيه الثقافة و توجيه العمل ، يمكن للإنسان - في نظر مالك بن نبي- أن يحقق الشروط الأساسية و الضرورية لبناء حضارة تطابق إطاره الخاص .

2- التراب.

ينبغي التأكيد هنا بأن معالجة مسألة التراب - كأحد العناصر المكونة للحضارة - لا تتمحور حول خصائصه وطبيعته، لأن ذلك موضوع آخر يعالج ضمن سياق آخر، وإنما تتمحور حول قيمته الاجتماعية المستمدة أساسا من قيمة عالية.

ذلك أنه حينما تكون قيمة المجتمع، بل تقدمه الحضاري مرتفعة، تكن في المقابل للتراب قيمة عالية والعكس صحيح ويمكن أن نستنتج في هذا الإطار - حسب رأي مالك بن نبي- أن التراب بصفة عامة في المناطق التي ينتشر فيها الإسلام يعتبر عديم القيمة بسبب تأخر الأفراد الذين يعيشون عليه. والمثال واضح في بلد كالجزائر حيث أن الأرض الخضراء التي كانت تتوفر عليها الكثير من مدنه أصبحت مهددة بالزوال بفعل عدم إدراك الإنسان الجزائري لخطورة، وعواقب زحف الرمال الصحراوية عليها. في حين يلاحظ العكس فيما يخص قيمة التراب في بلد كاليابان . فعلى الرغم من ضعف تربته، وعدم خصوبتها عموما - جبال صخرية و جزر - فانه يستطيع أن يتقدم في مسيرته الحضارية بفضل ما قدمه الإنسان الياباني من جهد في سبيل تطوع عنصر التراب، أو تكييفه وفقا للفوائد والمتطلبات الاجتماعية .

وهكذا فالسبب يرجع هنا بالدرجة الأولى حسب رأي - مالك بن نبي - إلى موقف الإنسان نفسه من التراب الذي يعيش عليه ويعمل على تمييزه واستثماره بإخضاعه للدراسة والتجارب كعلم

الفلاحة، وعلم المعادن، وطبقات الأرض، وغيرها وليس إلى تركيب التراب .

3- الوقت .

لا يتحدد عنصر الوقت هنا عند مالك بن نبي كمدة زمنية تقيم بعقارب الساعة، وإنما يتحدد من خلال مفهومه الوظيفي الذي يقيم الأعمال التي أنجزت في ظل فترات زمنية معينة. ولا يمكن لأي مجتمع أن يتبنى هذا المفهوم الوظيفي للوقت ويتعاطاه عمليا إلا باعتماد التربية كوسيلة أساسية يدرك من خلالها الأفراد قيمة الوقت كعملة فريدة من نوعها لا تسترد إذا ضاعت، كأن يربي الفرد لاسيما في المجتمعات المتأخرة حضاريا اليوم، ومنها المجتمع الإسلامي على تخصيص نصف ساعة يوميا في البداية لأداء واجب معين. فإذا ما خصص كل فرد الجزء من يومه في تنفيذ مهمة منتظمة وفعالة، فسوف يكون لديه في نهاية العام حصيلة هائلة من ساعات العمل لمصلحة الحياة العامة للمجتمع، وفي جميع أشكالها العقلية، الخلقية، الفنية والاقتصادية .

ومثل هذه التجربة هي بالذات ما قامت به ألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية 1945. إذ لم يبق لها من شيء تقيم على أساسه بناء نهضتها، فلما بدأ النشاط يسري في نفس المجتمع الألماني في مستهل سنة 1948 بفعل مضاعفة ساعات العمل، وتثمين الوقت، ورفض الإهمال، والتكاسل في العمل- كان ساعتئذ في نقطة الصفر من حيث المقومات الاقتصادية الموجودة لديه - غير أنه و بعد عشرة سنوات من انتهاء الحرب أصبحت ألمانيا تتمركز في مكانها الحضاري، بل أصبحت تسير في ذلك حتى الدول المتقدمة .

على أن تحويل الوقت من مجرد زمن خامد لا قيمة له إلى وقت ذي قيمة مجتمعية حضارية، وكذا تحويل التراب عن طريق الإنسان المنسجم مع قانون الحركة من كم كبير مهممل إلى عنصر هام في عملية التطور الحضاري بناء على المعادلة الحضارية التي وضعها - مالك بن نبي - الحضارة = الإنسان + التراب + الوقت.

كل ذلك لم تتم معالجته من قبله بعيدا عن بحثه العميق عن حركة هذه العناصر الثلاثة. ونحن إذا ما احتكمنا حسب رأي- مالك بن نبي - إلى مختبر التاريخ ، لوجدنا أن العناصر الثلاثة المكونة للحضارة (الإنسان ، التراب ، الوقت) ليست بإمكانها لوحدها، خاصة وهي منعزلة عن بعضها البعض، أن تصنع الحضارة، وإنما الأمر يتطلب تدخل (مركبا مشحذا وقادحا) في ذلك بحيث بدونه تصبح هذه العناصر كما أوكداساً هلاميا لا روح فيه⁹¹ .

وهذا المركب قد يكون (فكرة دينية) ولهذا اهتم مالك بن نبي كثيرا بالفكرة الخالصة عموما، وبالفكرة الدينية خصوصا، ودورها الكبير في تفعيل حياة (الإنسان، التراب، والوقت).
الفكرة المركبة (مركب الحضارة):

وقد رافقت دوما تركيب الحضارة عبر التاريخ طابعة بذلك معنى التصاعد في مجهود كل فرد، ومحقة للتشابه والتمازج بين جميع عناصر الحضارة على قاعدة عقد موحد، مشيرة من خلاله في النهاية إلى الاتجاه الذي ينبغي اتخاذه والهدف الذي ينبغي بلوغه.

وسواء تعلق الأمر بالحضارة الإسلامية أو بالحضارة المسيحية أو غيرها، فالحضارة حسب - مالك بن نبي- لا تنبعث في الأصل إلا بالعقيدة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص وتوجهه نحو غايات سامية. وعلى هذا الأساس فإنه عندما يتعلق الأمر بالبحث في حضارة من الحضارات، يتعين التركيز بدرجة

أولى على أصلها الديني الذي كان سببا في بعثها، لأن الحضارة ما هي في النهاية إلا نتاجا لفكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة -ما قبل التحضر- الدفعة التي تدخل به التاريخ. وهذا يعني أن الدورة الحضارية في المجال الزمني والمكاني لمجتمع ما تبدأ على اثر حدوث عارض غير عادي - أي بعبارة أخرى ظرف استثنائي يسجل نقطة الانطلاق - يتفق في الحقيقة مع ظهور فكرة دينية، هي بمثابة المصدر البيداغوجي الأساسي للطاقة الروحية في الإنسان والمفضية للفعالية المجتمعية، لا بمنطوقها اللفظي وإنما بحقيقتها الاجتماعية، أي بمضامينها الفعلية، حيث تصبح هنا الفعالية مرتبطة بالإنتاج في جميع المجالات، والذي يلعب فيه التوتر الإيجابي دور المكثف، وذلك بأن يصبح الفرد يصدر بإرادة، فيتحوّل إلى فعل مجسد ومدرس يدل على علاقات جدلية بين الكلمات والحال والمآل. إن الفكرة الدينية في تحريك وتنمية المجتمعات من خلال قراءة تاريخية لا تظهر حسب رأي- مالك بن نبي- في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للأفراد شرعة ومهاجا، أوهي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الأفراد نحو معبود غيبي بالمعنى العام للكلمة، كأنما قدر للإنسان أن تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقيقته، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسس معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقرته وتتفاعل معها⁰².

إن هذا ما ينطبق على سبيل المثال على الجزيرة العربية التي لم يكون يوجد بها قبل نزول القرآن سوى مجتمع يعيش، من الناحية الجغرافية، في صحراء قاحلة جربة يقضي وقته فيها في فراغ، وعطالة دونما أي انتفاع به، فحصل بذلك أن كانت العناصر

الثلاثة: الإنسان، التراب، والوقت، عبارة عن كم مكس خامد لا يؤدي دورا ما في التاريخ، حتى إذا ما تجلت - بتعبير (مالك بن نبي) الروح بغار حراء - نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكسدة حضارة جديدة، فكأنما ولادتها كلمة (اقرأ) التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم، فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قرونا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة وتقوده إلى التمدن والرقى.

إن هذه الوثبة التي حققها القبائل العربية التي لم تكن من صنع السياسيين، ولا حتى من صنع (العلماء البارزين) وإنما كانت من صنع أفراد يتسمون بالبساطة ولا يزالون في بداوتهم، غير أن تحول أنظارهم في تلك اللحظات إلى ما وراء الأفق القريب (أفق الأرض) مكثهم من أن يخرجوا من حياتهم الساكنة والمطبوعة بعدم الفعالية لأن شرارة الروح قد مستهم ودفعت بهم - بتعبير مالك بن نبي - إلى بناء حضارة تميزت بتلك القمة الخلقية الرفيعة التي انتشرت منها حياة فكرية واسعة جديدة، نقلت من علوم الأولين ما نقلت، وأدخلت علوما جديدة، حتى إذا ما بلغت الحضارة درجة معينة، انحدرت القيم الفكرية التي أنتجتها دمشق وبغداد وقرطبة وسمرقند.

الخاتمة

و من هنا يمكن تفهم بعمق - حسب رأي مالك بن نبي - سر دعوة القرآن المسلمين إلى التبصر في السيرورات التاريخية للأمم، وذلك من أجل الوقوف على الكيفية التي يحدث بها ذلك التفاعل أو التركيب بين عناصر الحضارة وأهمية الإيمان، أو الفكرة الدينية في ذلك التركيب باعتبارها تمثل الشرارة الحضارية التي تفاعل الرأسمال البدائي لأية أمة أو أي مجتمع (الإنسان التراب، الوقت) يستعد لدخول التاريخ.

المراجع

- مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، ترجمة كامل مسقاوي، دار النشر تيبازة
- ²- مالك بن نبي، تأملات، ترجمة كامل مسقاوي، دار النشر تيبازة، 1992
- ³- مالك بن نبي، شروط النهضة، ت عمر كامل المسقاوي، دار الفكر، الجزائر، 1984، الطبعة الرابعة
- ⁴- مالك بن نبي، آفاق جزائرية (الحضارة، الثقافة، المفهومية) ترجمة الطيب الشريف، دون داروتاريخ النشر
- ⁵- الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي (سلسلة لبنات في البناء الحضاري)، دار الينايع، الجزائر، 1993

الهوامش

- 1 - مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، ترجمة كامل مسقاوي، دار النشر تيبازة، ص 32.
- 2 - مالك بن نبي، تأملات، ترجمة كامل مسقاوي، دار النشر تيبازة، 1992، ص 199.
- 3 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ت عمر كامل المسقاوي، دار الفكر، الجزائر، 1984، الطبعة الرابعة، ص 49 بتصرف
- 4 - مالك بن نبي، تأملات، المرجع السابق، ص 170.
- 5 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، 63 بتصرف.
- 6 - مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، المرجع السابق، ص 100 بتصرف.
- 7 - مالك بن نبي، آفاق جزائرية (الحضارة، الثقافة، المفهومية) ترجمة الطيب الشريف، دون داروتاريخ النشر، ص 127.
- 8 - مالك بن نبي، آفاق جزائرية (الحضارة، الثقافة، المفهومية)، المرجع السابق، ص 133 بتصرف.
- 9 - الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي (سلسلة لبنات في البناء الحضاري)، دار الينايع، الجزائر، 1993، ص 24 بتصرف
- 10 - الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي (سلسلة لبنات في البناء الحضاري) المرجع السابق، ص 29 بتصرف.
- 11 - سورة الأنفال، الآية 63.
- 12 - الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي (سلسلة لبنات في البناء الحضاري) المرجع السابق، ص 33 بتصرف.

- 13 - الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي (سلسلة لبنات في البناء الحضاري) المرجع السابق، ص 36 بتصرف.
- 14 - مالك بن نبي، آفاق جزائرية (الحضارة، الثقافة، المفهومية)، المرجع السابق، ص 133 بتصرف، آفاق جزائرية (الحضارة، الثقافة، المفهومية)، المرجع السابق، ص 139 بتصرف.
- 15 - مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، المرجع السابق، ص 96 بتصرف.
- 16 - الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي (سلسلة لبنات في البناء الحضاري) المرجع السابق، ص 39 بتصرف.
- 17 - الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي (سلسلة لبنات في البناء الحضاري) المرجع السابق، ص 42 بتصرف.
- 18 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، (شبكة العلاقات الاجتماعية) ترجمة شاهين عبد الصابور، دار الفكر للطباعة، دمشق، 1985، ص 43، 42.
- 19 - مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، المرجع السابق، ص 108 بتصرف.
- 20 - مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، المرجع السابق، ص 118 بتصرف.